مصمصة كرشه وملجها[٥] كان يسرج صوت انفاسه .

خشخشة تخديش مخالبه على الحيطان راحت تقضم جسده . تُطبق اسنانه على بعضها . اخذ يجتر التراب ويمضغه مثل دودة الارض . . شاشةُ حزمة من الضوء خلل كوة كانت تعتصر مقلتيه . اخذ نفساً عميقاً ، راح يعيد الى عضلاته صلابتها . كانت الصور تتصارع امام ناظريه . تأخذ وضعية الاستعداد دونمارتوش او زخرفة . كل واحدة كانت تؤدي دورها على نوجه الامثل . . كان ، وكأنه النفير العام . تُرى هل هو هرج ومرج . . ؟ أم كان يوم الحشر ، ولم يكن هو على علم به . . ! بعضهم بملابس بيضاء متناسقة كان يداهم الناس ، نساءاً ورجالاً واطفالاً ويقبض عليهم وثمة مارد عريض المنكبين ايضاً ، كان منكبساً داخل كرسي ، يحمل بيمناه مجهراً يتلألأ تحت ضوء الشمس . من يؤتى به امامه كان يمرر المجهر على سيمائه ، ثم يلوح بأصبعه الى اتباعه فيسلخون جلده في الحال ، ومن كان لون جلده ينال الرضاو القبول من لدن المارد ، يُعتبر في عداد المخطوظين ، فينطلق ضاحكاً . اما القسم الاعظم فقد كان يبتلي ويلقي مصرّعه .

بعد ذلك توضع في اعناقهم الأرسان[٦] ويختفون عن انظاره . . ثم كانوا جماعاتٍ ، جماعات ، يقيمونهم صفوفاً ويقذفون بهم في حفرة معدة وهم احياء . . حتى انه شاهد بأم عينيه والدته ايضاً وهم يسلخون جلدها من فروة راسها لغاية ركبتيها . .

اصطخاب الامواج ، اعاده الى وعيه . اشعة الشمس كانت تكدر باصرتيه . وعلى حين غرّة ، اوثقه شبحان من يديه من الخلف ، ثم شرعا يطوفان به في الشوارع . . .

الهوامش

١ - صندوق اخترخان / صندوق كبير من الفولاذ ، او قد يكون صندوق خرافي .
٢ - خاصة : اسم النهر الذي يشق وسط مدينة كركوك
٣ - يقصد بها العذراء ويسوع . .
٤ - دنين : دن الرجل دنيناً : نغم ، ودندن الذباب : طن وصوت .
٥ - ملجَ : الصبيُ امه : تناول بادنى فه فرضعها : وامتلج مافي الثدي : امتص .
٦ - الارسان : جمع رسن : الحبل الذي يوضع في عنق الدابة .
× - هذه القصة منشورة في العدد (٥٩) أيار وحزيران ١٩٨٠ لمجلة شمس كردستان . . .

سيابند و خجوك

بين الاشجار الوارفة الظلال التي تكسو جبال كردستان ، ثمة شبحان يخطوان مسرعين غير مباليين بوعورة الطريق واشواكه الشائكة ، بين الوهاد والروابي الخضر ، كأنما يستديران في سيرهما ماضياً يحثان الخطى في الانفلات منه ، حيث يغذان السير الى غاية يتلمسانها أمامهما . . . !

انهما عاشقان هاربان بقلبيهما من غدر وجود الانسان ، يبحثان في ارض الله الواسعة عن ارض لم تدنسها يد الظلم كي يقيمان من فوقها عشهما الامن السعيد ، وهما يسيران في بطون ووديان تلك الجبال الشاهقة منذ سبعة ايام . لا يحفلان بتعب الرحلة الصعبة . لأن السعادة تلوح لهما من بعيد . ولا يحسان بطول الطريق – الهدف لأن الحب قد ملأ لهما الفضاء الواسع بالأنس .

ولم يحس احدهما بالأعياء الا عندما انتهى بهما السير وسط بعض الوهاد الى عين مياه صافية ينبع من جانب صخرة راسية ضخمة ، حيث تنحدر منها شلالات المياه الرقراقة في اندفاع صاخب الى اسفل الوادي العميق .

هناك وقف كل من سيابند وخجوك لحظات سارة ، يتأملان روعة المنظر الخلاب ، وينصتان الى الصدى الهائل لخرير المياه منبعثاً من بطن الوادي الكبير وشتى انحائه ، وهناك احس كل منهما بالارهاق الشديد يسري في اطرافه ، فقصدا الى اقرب شجرة ظليلة اليهما ، وتمددا في ظلها يستريحان من تعب سيرهما الطويل . . .

وتقاذفتهما في مجلسهما ذاك احلام من الامال والاماني اللذيذة في احاديث شيقة تناقلتها عنهما النسيمات العطرة ممتزجاً مع تلك الانغام الجميلة المنبعثة من مياه الوديان وحفيف اشجارها وتغريد بلابلها . . .

وبعد لأي أحس كل منهما بالذبول يداعب اجفانه من جراء إرهاق الرحلة الصعبة فأسلم كل منهما عينيه للنوم . . وما مرت الا دقائق حتى نام سيابند نوماً عميقاً ، اما خجوك فقد كانت احوج منه الى ساعة من الراحة والنوم ، ولكنها لم تكد تبصر عشيقها سيابند وقد راح في غيبوبة من النوم ، وتحس بوحدتها في ذلك الوادي الموحش ، حتى انتبهت الى نفسها وفي شأن ما اقدمت عليه من مفارقة اهلها والابتعاد عن اقاربها وعشيرتها ، كل ذلك في سبيل شيء واحد هو ان تنتصر لقلبها العاشق ولا تحرم من حبيبها !

لماذا ينكر عليّ أهلي أن اختني من بينهم ؟ أليس لأنهم يريدون أن أعيش بينهم بسلام على الطريقة التي تعجبهم ، ولكن هل كان يتحقق لي شيء من هذا الأمان فيما بينهم ؟ فالخير لي ان ابادر فوراً فأنجو بنفسي قبل ان يسرع فتخطفني يد الفناء المحتم ، وعليهم ان يفرحوا بأن هذا الذي كان خير مما كان سيقع حتماً !

وهكذا ظلت خجوك في حديث عميق مع نفسها حول ما أقدمت عليه من مفارقة أهلها الى أن انتبهت فجأة الى صوت دمدمة ينبعث من ورائها بين اغصان الاشجار ، فاستولى عليها الخوف والهلع ، وألتفتت تنظر خلفها ، وسرعان ما هدأت عندما شاهدت قطيعاً من الوعول يهبط من أعلى الجبل متجهاً الى الماء . . .

وجلست خجوك متكئة ، وراحت تنظر الى افراد هذا القطيع وتتأملهم وقد تفرقوا في اسفل الوادي يشربون ويمرحون ، ثم صعدوا في الجانب الاخر يتقدمهم فحل ذو قرنين عظيمين له عرير وصياح يذكر بثغاء الشياه . . .

فأثار ذلك الصوت في نفسها صورة قطعان الشياه اذ كان يعود بها الرعاة الى دار اهلها في كل أمسية من المراعي الخضر ، واذ ذاك يتعالى ثغاؤها مع غياب كل شمس فوق السفح الصغير الذي يمتد منبسطاً خلف الدار . . . وتذكرت نعيمها الذي فارقته . واهلها الذين تغربت عنهم في هذه الفجاج التائهة والجبال الموحشة ، وطافت بمشاعرها روح من الحنين والذكرى . ولمرأى الطبيعة وجمالها الفتان أثر كبير في اشعال نار الذكريات . اه لو كان لنا ان نغمض مشاعرنا عن تذكر الماضي كما نغمض ابصارنا عن رؤية ما لانريد . . . ؟ !

ولكن القدر هكذا يجري . . . تتولى الايام وتمضي بمافيها شئنا ذلك أم أبينا ؟ ! غير ان خيالها يظل ثابتاً في افكارنا ، ويذكرنا بها إن نسينا كل شيء . . . تذكرنا بها خفقات النسيم ، وصفحات القدران ، و شعاع الكواكب ، وهدأة الليل ، وامواج البحار ، وغناء البلابل ، ورنين الأوتار ، وحتى هذه اللحظات القليلة من الهناء التي تعثر عليها بين عمر الشقاء المديد ، يأبى الدهر الا أن يكدرها بالام من صور الماضي وقلق ما يحمله لنا المستقبل المجهول !

ولم تجد خجوك بُداً ، بعد أن استولت عليها هذه الافكار المؤلمة – من ان تستسلم للبكاء وتبرد لظى قلبها بقليل من الدموع الحرى ، غير انها نسيت ان قرينها الذي مضت له فترة طويلة وهو غارق في النوم قد بدأ يستيقظ . . . !

وافاق سيابند . . . وكان اول ما انتبه اليه هو دموع خجوك ، فدنا اليها في دهشة وبادرها قائلاً :– ماهذا . . . ماالذي يبكيك يا خجوك ! ؟

فأرتبكت خجوك من وقع المفاجأة التي داهمتها ، وسكتت ولم تُجب! ولكن سيابند عاد الى السؤال ، وأصر على ان يفهم حقيقة الأمر الذي دعاها الى البكاء والحنين ، فقد ثارت في نفسه من ذلك شكوك ولابد أن يقطع جذورها بمعرفة الحقيقة القاطعة . . .

فقالت له في لهجة مهدئة مباسطة : لاشيء ، سوى ان قطيعاً من الاوعال قد مرّ من هنا الان ، وفي مقدمته فحل يثغو كثغاء شياهنا اذ كان يعود من المراعي في المساء ، فأثار ذلك في نفسي بعض الذكريات ،

فهبّ سيابند من مكانه قائماً ، يتحسس مكان الخنجر

والقوس في جنبه ، وسألها :- في أي أتجاه مضى هذا القطيع ؟ !

فقالت :- لقد غاب وراء هذا المنحدر ، ولكن ماذا تريد أن تصنع ؟ !

فأجابها وهو يتجه الى حيث أشارت : اريد أن أذبح هذا الوعل الذي أثار شجونك وأسلمك الى هذا البكاء الذي لا داعي له .

فتعلقت به متوسلة ان لا يذهب ، وقالت له : مالك ولصيد الوعول في هذا المكان الذي يمر فيه عابرين الى مقصدنا ، ثم ان القطيع قد مر منذ حين ، ولن تستطيع اللحاق به ، الاّ اذا بدا لك ان تتركني وحيدة في هذا المكان .

ولكن سيابند انفلت من بين يديها منطلقاً نحو المنعطف الذي غاب وراءه القطيع وهو يقول متلفتاً نحوها : لا . . . بل انتظريني . . . انتظريني ياخجوك ، فساعود اليك بعد لحظات فقط برأس هذا الوعل الشرس . . . !

وقعدت خجوك في مكانها ، وقد تعلق بصرها بسيابند وهو يسرع في الطريق الذي غابت فيه الوعول . . . وفي هذه المرة كان عليها ان تستقبل مشاعر جديدة اخرى ، لقد أخذت تشعر بالأسى من أجل ما ظهر لسيابند من تأثرها وبكائها ، وراحت تحدث نفسها :-

ترى هل كان جائزاً لها في شريعة الوفاء والحب ان تسكب مثل هذه الدموع لمثل هذه الذكريات التي هي حقاً عابرة ؟ ! أليس من حق سيابند ، وقد رأى منها هذا التأثر من أجل هذا الأمر العارض ، أن يرتاب في مبلغ حبها وفي مدى اخلاصها له ؟ لاشك انه سيوازن بين مشاعرها ومشاعر نفسه ، وسينتهي الى نتيجة يتأكد من صدقها ، وهي انها اقل منه حباً و شغفاً . والاّ فلماذا لا تثور مثل هذه الذكريات في نفسه هو ايضاً ؟ !

وعزمت في نفسها على ان تعتذر اليه فور عودته ، وأن تؤكد له اخلاصها ومبلغ حبها الوفي الذي لا مزيد عليه .

وظلت تنتظر عودته وطال بها الانتظار الممل ، ومضت على غيابه اكثر من ساعة . . . ومضت مثلها ، وذوت الشمس حيث غابت وراء الأفق ، وهو لم يرجع بعد . . . !

فاستبد بها القلق ، وثارت في مشاعرها الوان من الأضطراب ، ولم تعد تستطيع الصبر على البقاء في ذلك الوادي الكبير ، فقامت تمشي في الطريق الذي ذهب فيه ، واخذت تتبع خطاه ، كم انتهى بها المسير الى مفازة جرداء ساكنة ، فوقفت هناك ، ولم تعد تستطيع متابعة المشي ، فقد داخلها الخوف الشديد من وحشة المكان وجموده ! غير انها ابصرت جثة وعل ملقاة هناك ، على مقربة منها ، فعاودها الجأش وراحت تتمم سيرها الى مكان الوعل . .

وانتهت اليه ، فاذا هو بعينه ذلك الوعل الذي كان يتقدم القطيع . وتأملته فاذا هو مذبوح ومصاب بسهم في اسفل بطنه ! فعلمت انه قد رماه أولاً بالسهم ، ثم أدركه فذبحه بالخنجر الذي معه .

ولكن أين بقي سيابند إذن ؟ !

وعلّق بصرها بالارض تحدق في الدماء السائلة من مذبح الوعل ، واخذت تُتبعُ بصرها سير هذه الدماء الى ان انتهت عند حافة بئر واسعة الفم هناك . . فأدركت انه قد ذبح الوعل على طرف هذه البئر . . .

ثم وقفت جامدة ذاهلة ! وقد بدأ الليل يقبل بظلامه الى تلك المفازة المروعة ، وراحت تفكر ، اين اختفى سيابند ؟ !

وبينما هي كذلك ، اذ انتهى الى سمعها انين خافت كأنه وهم من الخيال ! فاستيقظت كل ذرة من مشاعرها تنصت وتتسمع . . . واذا به أنين هادئ متلاحق يتعالى من فم البئر التي تقف بجانبه . . . !

فأمالت برأسها عليه ، وراحت في قاعة . لتبصر شبح سيابند ملقى على ظهره فوق جذع شجرة طويلة قائمة وسط البئر . . . !

فخارت حينئذ قواها ، ودارت تلك المفازة الموحشة من حول بصرها دورة كرب قاتل ، وجلست على حافة البئر وقد

عمت كل شيء . . . لقد علمت ان سيابند وضع رأس الوعل على حافة البئر ليذبحه . ولابد انه قاوم اذ ذاك بقرنيه العظيمين ، ودفعه بهما في ظهره فهوى في البئر ، وتلقاه في اسفلها هذا الجذع الذي نشب في ظهره ، فهو باق هكذا مصلوباً من فوقه .

وعادت خجوك وقد اطبقت عليها الحيرة ، تطل برأسها تصغي الى أنينه وتصاعد انفاسه مع هواء البئر العميق ، وتتأمل وجهه وعينيه الشاخصيتين الى الأعلى ، وتبين سيابند شبحها الاسود في فوهة الضياء التي تطل عليه ، فتحامل على نفسه وانتزع من صدره كلمات خافتة أرسلها الى سمعها مع صدى البئر قائلاً :-

- خجوك . . . انني امكث هنا في مقري الأخير الذي ساقتني اليه الاقدار ولكن ها هي الدنيا على كل حال . لاتزال تطل علي ، فها انا ذا ارى فوق صفحتها وجهك الجميل . . .

- سيابند . . . يا كبد خجوك . . . يا فتى الخنجر الذهبي والقوس الفضي ، ألم أقل لك لا تذهب ؟ ! ألم أتوسل اليك ان لا تسلك طريق الوعول ؟ ! وقد اغلقتُ عليك فم الطريق بقلبي ، ولكنك ازحته عن سبيلك ومضيت لا تلوي على شيء . . . !

- دعيني فان عتابك يحرق جرحي المؤلم ، دعيني يا أغلى من روحي التي لم أعد املكها ، دعيني فأنني لسعيد اذ استطعتُ ان اروي ظمأ حبي لك . بدم كبدي وعصارة روحي . . . !

والتفتت خجوك الى الوعل الملقى على جانب البئر . وتأملته قائلة - ان وعلنا لذو بأس شديد ، ولكنه على كل حال مظلوم . . . من يدري فلربما كان له هو الأخر قرينة تحن اليه وتضحي بحياتها من أجله . ومن يدري ، فلربما كانت المسكينة تبكيه الساعة كبكائي ، وتشقى بالحياة مثل شقائي . . . !

- ان هذا الجذع الناشب في الواح ظهري يلتهب عليّ كالحجر المستعر ، انه يجرعني عذاب الموت ، ولكنه لا يريحني بالموت نفسه ، ولكنها كما تقولين العدالة . . انها عدالة الأله تنتقم من الأنانية والظلم !

- ان ذلك ليس ظلماً منك انت بمقدار ماهو ظلم أُسرتي وأهلي ، ماكان اغنانا جميعاً عن هذا المصير لو طالت يدانا الى ابسط ما ملكنا الله اياه ، الا وهو حرية القلب والأختيار ، ولكن تلك هي قسوة الانسان تأبى الا ان تمتد اثارها حتى الى البهائم والوحوش . . . !

ثم أطلت خجوك برأسها على البئر باكية تقول :-

- يا حبيبي ، عند ربيع امالي فقدتك ، وأمام مشرق سعادتي غاب عني وجهك : كيف لي ان اطول جراحك الدامي لأضمه الى كبدي وألثمه بروحي الظامئة الى روحك البريئة الطاهرة ؟ ام كيف لي ان اجثو امام وجهك المشرق الوضاء أُبلله بدموعي ؟

- لاتبكي . . . لا تبكي يا سماء عيني الشاخصيتين ، اتركيني هنا للقضاء الذي تخطفني منك ، واغسلي اثار ذكراي في نفسك بماء النسيان ، وابحثي في دنيا الله الواسعة كثير من أمثال سيابند . . . !

- لا . . . لا . . . لن اذهب الى أي مكان ، ولن أجد السلوى عند اي انسان . سأصبح بومة باكية تنصب فوق الاطلال ، وامام مضرب الامال ، و عند كل زهرة اعتصفتها الرياح ، أوكوخ قوضته الاعاصير الهادرة أو غصن أيبسته رياح الخريف ، بل لن اتجاوز دنيا هذه البئر التي حللتها ، سوف اجعل منها عش سعادتي التي طالما فكرت بها ، وسأبحث في اعماقها عن امالي التي طالما بكيت من ورائها . سأعصب عيني بوشاحي الاسود ثم اهوي الى القدر الذي سبقتني اليه يا سيابند !

ولم تعد تستطيع البئر ان تنقل مزيداً من كلام سيابند الخافت الى أذن خجوك ، فقد اشتدت عليه وطأة الألم . . . فقامت تحل الوشاح الذي يربط خصرها ، وودعت دنياها بنظرة دامعة الى النجوم التي بدأت تتلألأ في السماء كأنها عيون باكية تُرمقها في تلك البيداء الخاشعة . .

ثم قامت على طرف البئر وقد عصبت عينيها ، فهوت بنفسها في ذلك المهوى السحيق ، حيث امتزجت كآبة الحزن على وجهها بسكينة الرضى والأستسلام . . . ! ! !